

اشكالية العلاقة بين العيارين والشطار

والسلطة البويهية

٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م

د. موفق سالم نوري

جامعة الموصل - كلية الاداب

ملخص البحث :

تناول البحث حركة العيارين والشطار بوصفها ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر احاطها الباحثون بقدر كبير من العناية ونعتوها بالمقاومة الشعبية المسلحة والثورة الشعبية التي تصدت للغزو البويعي، فعرض البحث لهذه الفرضية. وقد تم التوصل الى انه لم يكن للحركة اية ابعاد سياسية . وان هذه الفرضية انطلقت من قراءة ايدولوجية . وقراءة منهجية مخطئة لهذه الحركة ووقائع تاريخها . فهي لم تكن اكثر من فرز طبيعي لواقع اقتصادي سيء عانى فيه الفقراء ظروفًا قاسية الى حد كبير مع عدم وجود اية محاولات جادة وحقيقية لمعالجة هذه (الاضاع) فكان من الطبيعي ان تتولد عن ذلك ردود فعل سلبية خطيرة تمثلت بحركة العيارين والشطار .

لعل حركة العيارين والشطار كانت من اكثر الحركات الاجتماعية والظواهر التاريخية اثاره لاهتمام المعنيين قديما وحديثا . واذا كان القدامى قد اتفقوا على فقد الحركة ونعتها باشنع النعوت . فان غالبية المحدثين راحوا يكيلون لها الاوصاف التي تمجدها وترفع من شأنها . ومما جاء في هذه التوصيفات : « كانت حركة العيارين والشطار خلال حقبة الغزو البويهي حركة مناهضة للتسلط الاعجمي بسياساته ومبادئه »^(١) . و « انها تمثل ، دون شك وجهها من وجوه المقاومة الشعبية للتعسف البويهي والتسلط الاعجمي »^(٢) . كما انها تمثل « ثورة ضد الاسياد السياسيين وضو اسياد المال »^(٣) . فضلا عن كونها تمثل (حركات ثورية عنيفة) ضد (السلطة الاجنبية) و (التغاب الاجنبي)^(٤) . كما انها مثلت « اداة لهذا العصر و ثورة على فئة محددة قدر لها في ظروف سياسية وتاريخية معينة ان تستأثر لنفسها بالسلطة او المال او بهما معا »^(٥) . وان الذين تعرضوا لهجمات العيارين والشطار من اصحاب المال هم « بطانة السلطة »^(٦) . وهكذا انصب تقويم الباحثين لهذه الفئة على انها جسدت حركة ثورية شعبية خاضت فضلا عنيفا ضد السلطة الاجنبية وضد اصحاب الاموال ، وكان لسان حال هؤلاء الباحثين يقول ان حركة العيارين والشطار مارست فضلا قوميا وطبقيا على طريقة الكفاح الشعبي المسلح . وهو ما يحسن التوقف عنده على ضوء المعالم الآتية :

- (١) د. فاروق عمر فوزي ، النهوض العربي في العراق ١٠٠ .
- (٢) المصدر السابق ، ١٠١ .
- (٣) د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ٢٨٣ .
- (٤) د. بدري محمد فهد ، العامة في بغداد ، ٢٨٦ ؛ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٤ .
- (٥) محمد رجب النجار ، حركة الشطار والعيارين ، ٩ .
- (٦) طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٩ .

١ - إن جانباً من هذه التصورات بشأن الحركة استند الى قراءات مخطئة للنصوص وتحملها ما ليس له صلة حقيقية بواقع الامر من ذلك القراءة التي قدمها احد الباحثين بشأن نص يتعلق باحداث عام (٣٦١هـ) اذ اضطربت الاوضاع في بغداد على اثر التدهور الذي اصاب منطقة الثغور مع الدولة البيزنطية ، فلاحقت الخسائر القادحة بجانب المسلمين ، فقد جاء في النص : « وفي هذه السنة وقعت في بغداد فتنة عظيمة ، وظهروا العصبية الزائدة وتحزب الناس ، وظهر العيارون وظهروا الفساد ، واخذوا اموال الناس . وكان سبب ذلك ما ذكرناه من استفار العامة للغزاة ، فاجتمعوا وكثروا ، فتولد بينهم من اصناف البنية ، والفتيان ، والسنة ، والشيعه ، والعيارين ، فنهبت الاموال ، وقتل الرجال ، واحرق الدور وفي جملة ما احرق محطة الكرخ » (٧) . فجاءت القراءة على النحو الاتي : « اذ نجد تهجيراً عارماً في الوسط الشعبي ، اوقع الخسائر الكبيرة في دور السلطة وممتلكاتها ، بدأ هذا الانفجار داخل الحشود الجماهيرية المتطوعة لصد هجمات الروم على الجزيرة الفراتية ، وهذا يعني ان العيارين كانوا ضمن فصائل الشعب المتطوعة للدفاع ، الا ان تحسهم بعدم جدية السلطة البويهية في اسناد موقف الشعب والتوائها لعوق هذا الموقف الجماهيري ، حدا بهم (العيارون) لاستثمار هذا التجمع وتهجير الموقف داخليا لارهاق السلطة والاطاحة بها » (٨) .

وبشأن احداث عام (٣٦٤هـ) جاء في نص آخر : « وتغلبوا بالقوم ، واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب » (٩) . فجاءت القراءة على النحو الاتي : « ويبدو انهم ارادوا ان يؤكدوا وجودهم السياسي وتحديدهم لسلطة البويهية فاخذوا الضرائب من الاسواق والدروب » (١٠) . ولا شك في ان مثل

(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٨ ، ٦١٩ .

(٨) طالب جاسم حسن ، المصدر السابق ، ٢٩٧ .

(٩) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ .

(١٠) طالب جاسم حسن ، المصدر السابق ، ٢٩٧ .

هذه القراءات ليست منهجية ، اغفلت الفهم الصحيح لمضامين النص الواقعية ودلالاتها الفعلية ، المستندة الى ما يعرف بالتقيد الباطني الايجابي للنص فجاءت هذه القراءات اسيرة الفهم الايديولوجي للنص منكفئة على معطيات فكرية سابقة استهدفت رفع شأن الحركة الى مستوى النضال الوطني والقومي والطبقي .

وما عزز هذا الامر الاعتماد على المنهج الانتقائي في تعاطي هذه الظاهرة التاريخية لتعزيز معطيات القراءة الايديولوجية لها . لذا ترى هؤلاء الباحثين يغفلون الاشارة الى وقائع تاريخية كثيرة تقدم فهما اخر للحركة ، ان غياب الموضوعية في مثل هذه المعالجات اسفر عن تصورات غير دقيقة بشأنها .

٢ - الانطلاق من وحدة تاريخ الحركة ، ذلك ان المعينين بها ربطوا اولها بآخرها ، دون تمييز بين المراحل التي مرت بها . فقد لعبت هذه الحركة ادوارا مهمة في صراع الامين والمؤمنون فوقف أتباعها الى جانب الامين بوصفه يمثل الشرعية اولا وللدفاع عن مدينتهم ثانيا ، وكان ذلك في اواخر القرن الثاني للهجرة ثم وقفوا الى جانب المستعين في صراعه مع القادة الاثراك وللأسباب نفسها ، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث للهجرة . اذ جاءت النصوص واضحة وصريحة في اشارتها الى ما بذله العيارون والشطار في كلا المواقفين ، اذ قاتلوا ببسالة الى جانب الخليفين منافحين عن مدينتهم بغداد . اما ما حصل في القرنين الرابع والخامس للهجرة فهو امر مختلف تماما . عليه فان تقويم الحركة يجسر ان ينطلق من واقعها الفعلي في كل مرحلة وعدم احتساب بعض المراحل على بعضها الاخر ، فذلك ما يفقد التقويم مصداقيته ودقته . إن هذا التباين في طبيعة الحركة بين المرحلتين ، أي القرنين الثاني والثالث من جهة والرابع والخامس من جهة اخرى . ادركه بعض الباحثين ، بيد انه فسر ذلك على انه ناجم عن انشقاق اصاب الحركة ، فضلا عن العصابات التي استغلت

اسمها استغلالا سيئا لتحقيق مصالح قومية افانية ضيقة (١١) . غير ان هذا التفسير لا تدعمه اية نصوص او معالم من نوع ما ، والا يصمد أمام اي نقد تاريخي منهجي ، فهو لا يعدو كونه محاولة لابعاد الشبهات عن الحركة والعمل على تحسين صورتها .

٣ - ومن المنزلات الخطيرة التي يقع فيها غلاد من الباحثين في معالجتهم للقضايا التاريخية . انطلاقهم من روح عصرهم ومن قضاياهم الفكرية الخاصة ثم اسقاط ذلك على الماضي ، وهو ما نبه عليه كروتشه عندما قال : (التاريخ كله تاريخ معاصر) وهو أمر يلزم الباحثين التحرر من المقومات الفكرية لعصرهم عند بحثهم ظواهر الماضي التاريخية ، هذا المنزلق وقع فيه الذين كتبوا في تاريخ العيارين والشار ، فانطلقوا من الموجة اليسارية التي سادت في الساحة العربية لاربعة عقود من الزمن منذ منتصف القرن الماضي ، وترسخت مفاهيمها في ذاكرة الباحثين ومنها : الكفاح الشعبي المسلح والنضال الوطني من اجل الاستقلال والنضال القومي من اجل الوحدة والنضال الطبقي ضد الطبقات المستغلة وغيرها . مشكلة المناخ الفكري العام والسائد ، تشرب الباحثون ثم اسقطوه على موضوعاتهم التاريخية . لهذا فلمس في اثناء كلامهم روح الفكرة المعاصرة بل مفرداتها ، عليه جاء تفسير حركة العيارين والشار على اساس مشروعيتها (الثورية) مستبعدين المشروعية (الشرعية) من تقويم الحركة . تلك المشروعية التي كانت تحكم حركة التاريخ الاسلامي ، فالفقه الاسلامي ومعانيه الفكرية هي التي شكلت المجال الفكري لحركة هذا التاريخ . وفي هذا الاطار فان البوريين لم يكونوا اجانب ولا هم غزاة ، بل مواطنون في الدولة الاسلامية ، حماوا معاني المواطنة ودلالاتها الشرعية ، عاشوا في كنف هذه الدولة ودانوا بدينها ، ولهم حق ممارسة الفعل السياسي في اطار الحياة السياسية الاسلامية . وهم باستيلائهم على السلطة كانوا

(١١) د. فاروق عمر فوزي ، المصدر السابق ، ١٠٠ .

(متغلبين) وليسوا غزاة اجانب ، وهذا التقويم لا يتضمن مديحا او ثناءا على فعلهم السياسي ، بل وضعه في اطار التعريف الشرعي الصحيح له . لان ذلك يساعد على فهم اية افعال او ردود افعال معاصرة على الاساس الشرعي ايضا . من ذلك ان فهم اية افعال مناوغة للبرهيين على اساس وطني قومي هو فهم منحرف عن الحقيقة لا يمت للواقع بصلة .

وهذا ما يمكن قوله بشأن اصحاب الاموال ، فالفقير الذي عاش فيه قطاع من العامة لا يسوغ (شرعا) السطو على اموال الاخرين حتى وان قصروا في اداء الحقوق الشرعية المترتبة عليهم مثل الزكاة ، وهو ما حاول احدهم من خلاله تسوينغ نشاطه ، بذريعة ان التجار لم يؤدوا ما عليهم من زكاة اموالهم ، وهم بذلك جعلوها عرضة لاصحاب الحاجة من فقراء ولصوص ، شاء ارباب الاموال او كرهوا^(١٢) . مع اننا من الناحية المبدئية لا نفضل العامل الاقتصادي الذي اسهم بشكل فعال في ظهور هذه الحركة . المتمثل بالتباين الكبير في الثروة بين الفقراء والاغنياء ، وسوء الاوضاع المعاشية لطبقة العامة^(١٣) . ثم عجز الدولة عن القيام بواجبها في اقامة الاحكام الشرعية للدين الاسلامي وبما يوفر حياة آمنة كريمة لكل مواطن^(١٤) . فكانت النتيجة الطبيعية فوز مثل هذه الحركة بكل تداعياتها السلبية ، فالمجتمع والدولة يتحملان وزر مثل هذه النتائج .

عوامل نمو الحركة وتوسع نشاطها :

مثلت حركة العياريين والشطار ظاهرة تاريخية متأصلة في الواقع الذي ظهرت فيه ، فهي بوجهها التقليدي العروف ظهرت منذ اواسط القرن الثاني للهجرة . وراحت في نشاطها بين مد وجزر ، ثم شهد النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة توسع الحركة اجتماعيا حينما استقطبت الى داخلها فئات جديدة،

(١٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ١١٦/٢ .

(١٣) د. عبدالعزيز الدوري ، المصدر السابق ، ٢٨٢-٢٨٣ .

(١٤) د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد ، ٣٦-٣٧ .

كما انها نجحت في توسيع فعاليتها الى حد كبير وهو أمر اعجز السلطات الحكومية عن مقارعتها او مواجهتها . مما يعني ان عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) شهد عوامل عديدة اتتجت هذا التحول في فعاليات هذه الفئة ومن هذه العوامل :

١ - ضعف بنية السلطة السياسية واجهزتها :

في عام (٣٣٤هـ) خضعت الخلافة العباسية للتغلب البويهي ، والبويهيون من الديلم موطنها في جنوبي بحر قزوين . اخذت بالنمو والتوسع السياسي والعسكري حتى تمكنت من فرض نفسها قوة سياسية وعسكرية لا تقهر وترافق ظهورها مع الضعف السياسي الذي اصاب الدولة العباسية ومؤسسة الخلافة نفسها . وازاء ذلك نجح البويهيون في مد نفوذهم الى بغداد ، مما اسفر عن وضع سياسي لم تكن له سابقة مثابة طوال اكثر من ثلاثة قرون ، وعلى الرغم من ذلك تمكنوا من فرض وجودهم السياسي والعسكري على الدولة ليصبحوا حكامها الفعليين واصبح الخليفة رهيئة لاهوائهم ورغائبهم ، وجوده رمزي ليس اكثر . ومع ان البويهيين فكروا منذ البدء بتغيير اوضاع الخلافة عن طريق اقضاء الخليفة العباسي والمجدي بخليفة عاوي ، انهم عدلوا عن هذه الفكرة بعد ان اشير عليهم بخطل هذا الرأي وخطره عليهم انفسهم (١٥) . عندئذ فقط وافق البويهيون على ابقاء الخليفة العباسي في منصبه ، الذي بات مجردا من كل حول او قوة سياسية وليس له من دواعيها اي شيء ، وبقي السلطان البويهي وحده صاحب النفوذ الحقيقي والسلطة الفعلية على كل المستويات ، ففقدت الخلافة هيبتها في النفوس ، ولا سيما تحت وطأة الممارسات التي قام البويهيون بها تجاه هؤلاء الخلفاء (١٦) .

(١٥) الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ٣٥٤/١١ - ٣٥٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٤٥٢/٨ .

(١٦) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٤٥٢/٨ ، ٧٩/٩ ؛ ابن الكازوني ، مختصر التاريخ ، ١٧٨ ، ١٩٤ .

غير ان هؤلاء البويهيين ، وبعد قرابة الربع قرن من وجودهم في السلطة في بغداد ، بدأ الضعف يتسلل الى كيانهم وسلطانهم ، وهو امر سمح بظهور نشاط العيارين وتوسعه يدها من عام (٣٦١هـ) كما سيتبين تباعا . وفي عام (٣٧٦هـ) أخذت دولة بني بويه بالضعف بشكل جلي لافت للنظر^(١٧) . وفي عام (٤٢٦هـ) انحل امر الخلافة والسلطنة ببغداد^(١٨) اذ أخذت فتر السقوط تحقيق بيني بويه من كل جانب . وبين هذين التاريخين كانت عوامل الصراع قوية ، تفعل فعلها داخل مكونات السلطة البويهية ، اذ ظهر ضعف الدولة واضحا في عام (٣٦١هـ) عندما عجزت عن مواجهة الخطر البيزنطي في مناطق الثغور ، فانعكس الامر على الاوضاع في بغداد نفسها^(١٩) . ومن اوجه الصراع داخل هذه السلطة ما وقع بين بختيار (عز الدولة) وحاجبه سبكتكين من جفوة ، دفعت الاخير الى التمرّد بالتعاون مع الجند الاتراك^(٢٠) . وكانت وفاة أي سلطان بويهى فرصة للجند والعلماء للسلب والنهب واضطراب الاجوال^(٢١) بل ان هؤلاء حاولوا التدخل في نصب كبار الشخصيات البويهية^(٢٢) او عزلهم . لينالهم ما قال الخلفاء على ايديهم .

ومن المظاهر الاخرى لتدهور اوضاع السلطة تلك الفتن التي ثارت من وقت لآخر بين الجند الاتراك والجند الديلم^(٢٣) . وقرب من ذلك ايضا شغب هؤلاء الجند على السلطات البويهية من اجل تحصيل رواتبهم التي كانت غالبا

(١٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨٦/٣ .

(١٨) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ٥٨/٤ .

(١٩) الهمداني ، تكملة ، ٤٢٨/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٨/٨ - ٦١٩ .

(٢٠) الهمداني ، تكملة ، ٤٣٢/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٣٤/٨ .

(٢١) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم في اخبار الملوك والامم ، ١٤٦/٨ .

(٢٢) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٦٤-٦٢/٨ .

(٢٣) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٤٩/٩ ، ٦٣ .

ما تتأخر عن موعدها بسبب العجز المالي الكبير ، لو ان هذا الشغب كان يقع لاية اسباب سياسية اخرى . فقد تكرر هذا المشهد لمرات كثيرة^(٢٤) . وكان من نتائجها ليس ضعف الاحساس بالسلطة بل ضعف المسؤولية تجاه المجتمع وحسب ، بل تطور الامر الى قيام اجهزة السلطة بالاعتداء على ممتلكات المجتمع في بعض الاحيان^(٢٥) .

وازاء هذا التطور في بنية السلطة ومكوناتها ، وجد العيارون فرصتهم لممارسة نشاطهم في اعمال السطو والسلب والنهب ، وجاء اشارات عديدة الى الصلة المباشرة بين واقع السلطة هذا والتصعيد المتنامي لفعاليات العيارين والسطار ، كما حصل في احداث عام (٣٦٤هـ)^(٢٦) . واحداث عام (٣٨٩هـ)^(٢٧) واحداث عام (٣٩١هـ)^(٢٨) . واحداث عام (٤١٦هـ)^(٢٩) . ثم احداث عام (٤١٧هـ)^(٣٠) . اذ انعكس الضعف المتزايد في بنية السلطة السياسية للدولة على اجهزتها المختلفة ، ولاسيما الامنية منها ، متسببا في ارتقاء الحالة الامنية في بغداد وربما انعدامها في بعض الاحيان ، موفرا المناخ الامثل ليمارس العيارون والسطار نشاطهم العهود .

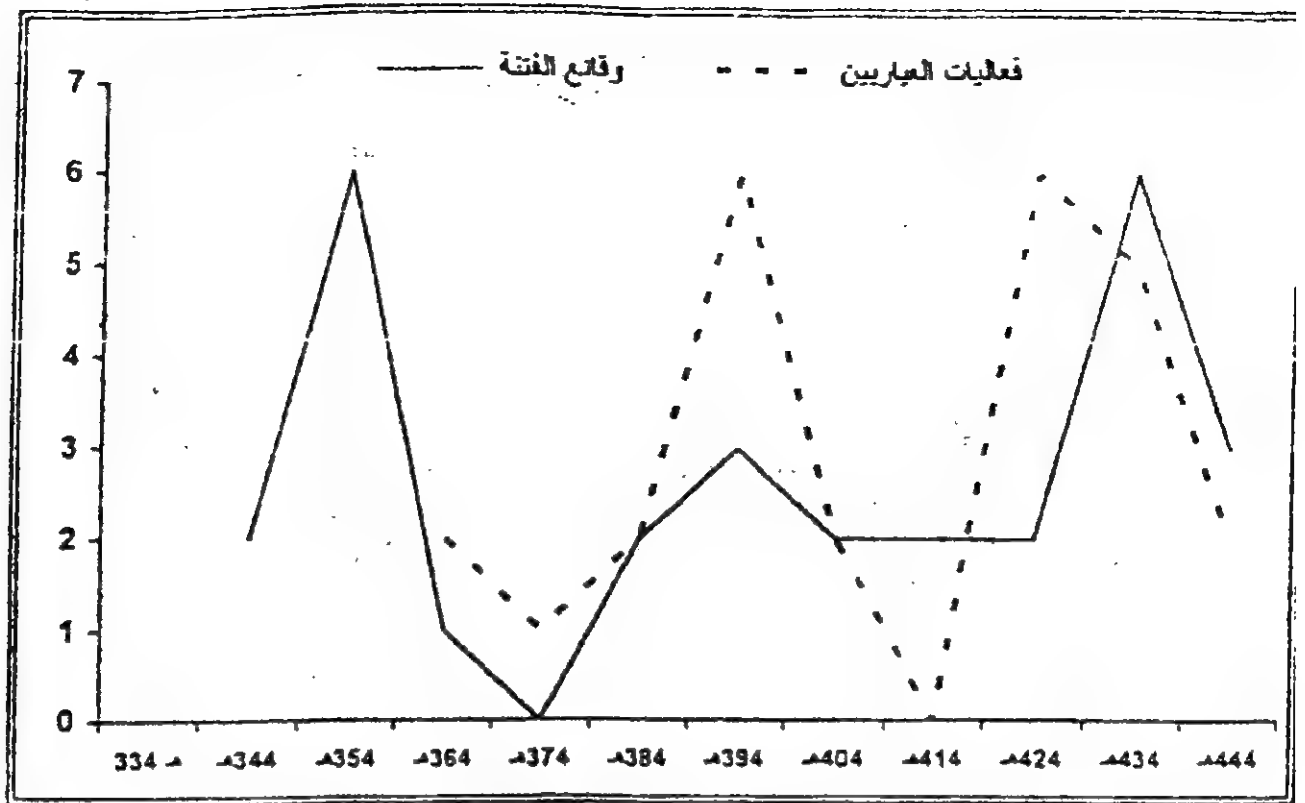
-
- (٢٤) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٤٥٦/٨ ، ٤١/٩ ، ١٠٠ ، ٣٦٦ ، ٤٢٣ ، ٤٤٦ ، ٥٧١ ، ٥٩٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٣/٨ ، ٧٨ ، ٨٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، احداث الاغوام (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٢ ، ١٥ .
- (٢٥) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٦/٨ ، ١٠٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٦٨/٩ ، ٣٥٣ ، ٦٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٣/١١ .
- (٢٦) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٣٥٥/٦ .
- (٢٧) الصابي ، تاريخ هلال بن الحسن ، ٦-٥/٨ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ٧٦/٨ .
- (٢٩) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٢٠٤/٣ .
- (٣٠) ابو الفدا ، المختصر ، ٥٤/٤ .

ب - الفتن والحروب الاهلية :

منذ السنوات الاولى للدخول البويهيين الى بغداد ، وجدت الفتنة الطائفية طريقها الى هذه المدينة التي نعمت بالامان قبل ذلك قرنين من الزمن ، فحصلت هذه الفتن اعدادا متزايدة من اهل بغداد وعامتها . ليشكل ذلك خلافا فادحا في الحياة العامة للمجتمع ، خسر بسببه هذا المجتمع الكثير من ابناءه اولاً ، ثم تدهور معالم الحياة المختلفة الاقتصادية وامنية واجتماعية ، ليوفر ذلك المناخ الملائم ليمارس العيارون السطو والسلب والنهب . وقد اوردت المصادر اشارات عديدة الى الصلة المباشرة ايضا بين واقع الفتنة وفعاليات هذه الفتنة وممارستها لنشاطها المذكور . ففي عام (٣٨١هـ) : « زادت الفتنة وتسلط اهل الدعارة فقلد ابو الهوارس بهتون بن ذرير الشرطة ونزل دار ابي الحسن محمد بن عمر التي على دجلة ، وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم » (٣١) . وجاء بشأن احداث عام (٣٩٢هـ) « عظمت الفتنة ببغداد بعد ان خرج ابو جعفر الحجاج عنها وزاد امر العلويين العيارين وقتلوا النفوس وواصوا العملات » (٣٢) . وجاء بشأن السنة اللاحقة ايضا : « اشتدت الفتنة واتشر العيارون والمفسدون » (٣٣) . كما جاء بشأن احداث عام (٤٢٢هـ) : « تجددت الفتنة ببغداد ... وكانت فتنة عظيمة ... ودخل العيارون البلد » (٣٤) .

وربما لا يقدم المخطط الاتي تطابقا بين الحركة البيانية لواقع الفتنة ومثيلتها فيما يتعلق بالعيارين والسطار ، غير ان ذلك لا يعني انعدام صلة السبب والنتيجة بين الامرين بدلالة النصوص المتقدمة ، لان ظروف الفتنة تعني في كل الاحوال اضطراب جبل الامن ، وهو ما يتمناه العيارون والسطار ليمارسوا فعاليتهم المختلفة .

-
- (٣١) الصابي ، تاريخ هلال ، ٥٧/٨ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ١٠٥/٨ .
(٣٣) ابن الاثير ، الكامل ، ١٧٨/٩ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ٤١٨/٩ .



مخطط بياني يشير الى وقائع الفتن وفعاليات العياريين في بغداد
تم رسم المخطط في ضوء المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية

بدأت الفتنة تجد طريقها الى المجتمع البغدادي منذ عام (٣٣٨هـ) (٢٥٠).
لتشتد في احيان عديدة مختلفة ورأها اعدادا كبيرة من القتلى من كلا الطرفين
المتحاربين ، فضلا عن حرائق مدمرة امت على الاسواق والدور والممتلكات
كما حصل في عام (٣٤٦هـ) (٣٦). وقد شجع البويهيون هذه الاوضاع في بعض
الاحيان ، كما وقع في عام (٣٥١هـ) (٣٧). وفي فتنة عام (٣٥٢هـ) قتل من الناس

(٣٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٦٣/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢١/١١ .
(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٢٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢٤/١١ .
(٣٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٧/٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث
الاعوام (٣٥١-٣٨٠هـ) ٨ .

خلق كثيرون ، ورافق ذلك اقتراب الاموال والممتلكات (٣٨) . وتكررت مثل هذه الاعمال في عام (٣٦١هـ) فكان القتل والنهب واسعين ، وكان دور العيارين بارزا في ذلك (٣٩) . ولم تهدأ الفتنة التي وقعت في عام (٣٨٢هـ) الا بعد تدخل الشرطة وقتل عدد من الاشخاص ، فسكنت الاوضاع (٤٠) . ولم تهدأ الفتنة في عام (٣٩٨هـ) الا بعد أن زجت الشرطة بعدد من المقتنين اصحاب الفتنة في السجون (٤١) . وفي عام (٤٠٨هـ) تطورت الاحوال بأن اقام اصحاب المحال السكنية الابواب والاستحكامات على دروبهم (٤٢) . وفي عام (٤٤١هـ) تحول الامر الى اقامة الاسوار والتحصينات حول الاحياء السكنية (٤٣) . وفي عام (٤٢٢هـ) كانت الفتن عديدة تكرر وقوعها بين شهر وآخر ، تمتع العيارون خلالها باجواء مثالية لممارسة نشاطهم (٤٤) . اما في عام (٤٥٢هـ) كانت الفتنة عادية ، بدا ان الجديد فيها هو اقتتال العيارين فيما بينهم ، كل فريق منهم متحزب للطائفة التي ينتمي اليها (٤٥) .

ج - تدهور الاوضاع الاقتصادية :

ما ان وضع البويهيون اقدامهم على ارض بغداد حتى بدأ الغلاء يظهر في اسواقها ، فبلغ عند حالات الغلاء خلال عصر التغلب البويهي اكثر من خمس عشرة حالة ، وهو امر ان دل على شيء ، فانما يدل على اضطراب كبير في

-
- (٣٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٥٨/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٣/١١ .
 (٣٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٩/٨ .
 (٤٠) نفسه ، ٩٤/٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٣ .
 (٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٨/٩ .
 (٤٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٨٧/٧ .
 (٤٣) نفسه ، ١٤٠/٨-١٤١ .
 (٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .
 (٤٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .

الاحوال الاقتصادية والمعيشية للبلاد ، وانعدام حالة الاستقرار الاقتصادي فيها ، لينعكس ذلك بدوره على اضطراب الحياة الاجتماعية ، فالكثير من جوانب السلوك الفردي او الجمعي على حد سواء مرتين بطبيعة الاوضاع الاقتصادية ، فاذا ما تردت هذه الاوضاع وتدهورت ، فان ذلك سيولد سلوكيات اجتماعية مضطربة ومنحرفة ومتطرفة ، وذلك له مردوده على طبيعة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، اذ يصوب المعدمون ابصارهم ناحية اموال الاغنياء والاثرياء والجدلين فيها فرصة مواتية لاشباع حاجاتهم التي حرموا منها تحت ضغط الفقر والبؤس .

ومن اقصى حالات الغلاء التي واجهت اهل بغداد ما وقع في عام (٣٣٤هـ) ، فاضطر الناس الى اكل الميتة ، والكلاب والسنابير ، وبعض النباتات الطبيعية ، مسببة لهم اضطرابات صحية خطيرة ، بل ثمة كلام يشير الى ان بعضهم اكل لحم البشر لسد جوعته^(٤٦) . وفي عام (٣٦٤هـ) ارتفعت الاسعار ارتفاعا كبيرا وانعلمت الاقوات من السوق ويغ الكر (= ٢٧٠٠ كغم) من الدقيق بـ (١٧٥) ديناراً^(٤٧) . وبعد ذلك بعشر سنوات غلت الاسعار مسرة اخرى فكانت مجاعة (عظيمة) وبانغ كر الحنطة ثلاثة الاف درهم والكر الشعير ألفي درهم ، حتى مات الناس على الطرق^(٤٨) . وذلك ارتفاع هائل في الاسعار مقارنة بالغلاء السابق ، وفي غلاء عام (٣٧٧هـ) اضطر الناس للرحيل عن بغداد^(٤٩) . وفي غلاء عام (٣٨٢هـ) بيع رطل (= ٤٠٦/٢٥ غم) الخبز باربعين درهماً^(٥٠) . وفي عام (٣٩٧هـ) تسبب الغلاء في شغب الجند وفتنة العامة في

(٤٦) الهمذاني ، تكملة ، ٣٥٧/١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٤٦٥/٨ ؛ ابن كثير ،

البداية والنهاية ، ٢١٣/١١ .

(٤٧) الهمذاني ، تكملة ، ٤٣٩/١١ .

(٤٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٢١ .

(٤٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٦/٧ .

(٥٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٤٥ ؛ الذهبي ، حوادث الاعوام ،

٣٨١-٤٠٠هـ) ١٣ .

بغداد^(٥١) . وفي عام (٤٣٩هـ) جاء الغلاء والوباء معا ليحصدا اعدادا كبيرة من الناس حتى خلت الاسواق منهم^(٥٢) . ثم تكرر ذلك في العام اللاحق ايضا^(٥٣) . ان اجواءا من هذا النوع تسببت ، بدون ادنى ريب ، في تهئية الظروف الملائمة ليمارس العيارون نشاطهم في السلب والنهب والسطو على الاموان والاقوات وغير ذلك . فوجدوا في اوضاع الغلاء دافعا لا يرد ومسوغا اضافيا لزيادة حجم نشاطهم .

انشطة العيارين وفعاليتهم :

إن اي تقويم حقيقي لحركة العيارين والشطار ، لابد ان ينطاق من احد امرين او كليهما معا : فاما معطياتها الفكرية او معطياتها التاريخية من افعال وممارسات ووقائع ، وبما ان المعطى الاول منعدم كليا ، لان المنتمين الى الحركة والعاملين فيها او معها ابعد ما يكونون عن امتلاك ناصية الفكر ودواعيه لضحالتهم الاجتماعية والثقافية ، فمجزوا عن التعبير الثقافي عن وجودهم او بيان مقاصدهم واهدافهم ، بل ان ذلك لم يعنهم في شيء . لذا لم يبق امامنا سوى استقراء الواقع واستقصائه لتبين طبيعة هذه الحركة ومن ثم اهدافها وغاياتها الحقيقية ، وذلك السبيل الوحيد لاي باحث في هذه الظاهرة .

من الملاحظ ان المصادر التاريخية ، وهي تعالج اوضاع هذه الفئة ، غلب عليها استخدام تسمية العيارين . وهذا يجب ان لا يقود الى الاعتقاد ان ثمة فرقا او تمييزا بين العيارين والشطار ، فالاسمان يدلان في الواقع على مسمى واحد ، بل ان لهذا المسمى اسما ثالثا هو : الفتوة او الفتيان ، اذ ورد في قول

(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٤/٩ .

(٥٢) نفسه ، ٥٤١/٩ ؛ انظر ايضا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٢/٨ .

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٥٢/٩ .

شاعر يصف افعال العيارين والشطار ابان الصراع بين الامين والمأمون ، وما
أبلوه من بلاء حسن في التصدي لقوات طاهر بن الحسين ، فقال الشاعر :
ويقول القتي اذا طعن الطعنة خذها من القتي العيار^(٥٤)

كما ان القشيري (ت ٤٦٥هـ) استخدم هذه التسميات الثلاث بعضها
مرادف لبعض دالة على مدلول واحد^(٥٥) . على انه لا بد من ادراك ان مدلولات
الفتوة في هذه المرحلة هي ليست ذات مدلولاتها كما ظهرت في مرحلة لاحقة
ابان خلافة الناصر لدين الله ، ولا سيما من الناحية الحركية التنظيمية ، اذ تراجعت
تسمية العيارين والشطار لتحل محلها كليا تسمية الفتوة دالة على معان وافكار
جديدة ، وان كانت هذه قد انبثقت من رحم تلك .

وقد توسعت حركة العيارين والشطار في عصر التغلب البويهي
(٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) هذا توسعا كبيرا سواء في حجمها وتنظيمها او في طبيعة
اعمالها وانشطتها ، ومن ملامح هذا التوسع ان اشرافا من العباسيين والعلويين
انضموا الى هذه الفئة ، وشاركوا في انشطتها^(٥٦) . وجاء ذلك تحت ضغط
الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي اصابتهؤلاء ، وبوصف ذلك من نتائج
التغلب البويهي الذي رافقه سوء السياسة والادارة^(٥٧) . وبلغ من اتساع
قاعدة هذه الفئة ان قال المقدسي (ت ٣٧٥هـ) بشأنهم في اطار حديثه في اهل
بغداد وظرفهم ، فلما بلغ الكلام بشأن العيارين قال : « اذا تحركوا ينفنداد
هلكوا »^(٥٨) . يريد بذلك اهل بغداد وما يصيبهم من اذى كبير بسبب
الفعاليات الواسعة للعيارين المتأتية من كثرة عددهم ، ثم قال واصفا جولاته

(٥٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٧٥/٨ .

(٥٥) الرسالة القشيرية ، ١٧٩ .

(٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢٠/٧ ؛ الذهبي ، العبر ، ١٧٨/٢ ؛ سبط ابن

الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٠/١١ .

(٥٧) د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ٩٣ .

(٥٨) احسن التقاسيم ، ١٣٠ .

ورحلاته ومشاهداته في اثنائها : « ورأيت دول العيارين »^(٥٩) . كناية عما بلغوه من سطوة هائلة وتفوذ كبير وتحكم في الاحوال العامة في بغداد وغياب السلطة الرسمية ، فظهروا وكأنهم هم الحكم ، هذا مع العلم ان المقدسي توفي قبل ان يرى ما هو اعظم مما رآه في عصره ، وهو ما سنبينه تباعا .

وتباينت الاراء بشأن تقويم الجانب الاخلاقي لهذه الفئة ، فهم في افعالهم كانوا قد اظهروا جانبا من الامانة والتعاون والكرم ورعاية النساء ومساعدة الفقراء والضعفاء واظهروا الشجاعة والصبر وتحمل الصعاب^(٦٠) . وبلغت الشبهة ببعضهم انه رفض تسليم غلام مطلوب لدى السلطات ، وتحمل ان يضرب الف سوط (كذا) على ان يفعل ذلك^(٦١) . وامتنحن احد وجوه العيارين في اخلاقه بان بيعت له جارية على انها غلام ، وكانت ذات جمال وبهاء ، فلبثت عنده عدة شهور ، فلما سئلت عن حاله ، ردت انه لم يعرف انها جارية لانه لم يمسه اصلا لا اعتقاده انها غلام وانه لا يجوز اتيانها^(٦٢) . ومن ناحية اخرى فان الوقائع كشفت احيانا عن سلوكيات مخالفة فيها اعتداء حتى على النساء من فعل الفواحش والمحرمات ، وقد جاء في قصة احد هؤلاء يعرف بـ (ابن الحراصة) كان مظهرا « للقمار والعيارة والفجور وبيع الخمر وتأوي اليه اللصوص » ولا يستطيع احد ان ينكر عليه في ذلك لصاته باحد قادة الجند الديلم وحمايته له مقابل ضمان الف درهم في كل شهر ، فاذا عجز عن السداد اخذ كل من اجتاز بداره مستوليا على ما معه من مال^(٦٣) .

(٥٩) نفسه ، ٤٥ .

(٦٠) التوحيد ، المقابسات ، ٩٦ ؛ ابن الجوزي ، الاذكياء ، ١٩٦-١٩٨ ؛ تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦١) القشيري ، الرسالة القشرية ، ١٧٩ .

(٦٢) نفسه .

(٦٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، ٣٤٩/١ .

وهم مهما حاولوا اظهارت من خلق ، فان ذلك لم يقنع المجتمع بسبب ما الحقوه بحياة الناس من اذى كبير ، اذ سخر ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) من فتوتهم التي غالبا ما كانت تنتهي بسلب الناس اموالهم وممتلكاتهم ، فضلا عن رعبهم وافزعاعهم^(٦٤) . كما قال التوحيدي (ت ٤١٤هـ) بشأنهم : « وهذا الرهط ليس لاحد فيهم اسورة ، ولا هم لاحد قدوة ، لغلبة الباطل عليهم ، وبعد الحق عنهم ، ولان الدين لا يلتاط بهم ، والفتوة التي يدعونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة ، كيف تصبح فتوة اذا خالفها الدين ؟ »^(٦٥) .

وما الواضح ان تقويم التوحيدي وابن الجوزي لاخلاقيات هذه الفئة لم ينطلق من حيثيات وجودها ، بل انطاق من التصور الاسلامي الذي يرفض معالجة الخطأ بخطأ اخر مقابل . وفي الوقت نفسه لم نجد في ادبيات العصر اية معالجة شرعية لطبيعة الاوضاع التي اتجت هذه الفئة ، وربما انطلق المعنيون من الاكتفاء بالتصور العام ان اقامة الشريعة الاسلامية كفيل وحده بمعالجة اي خلل في حياة الامة . على ان احدا لم يعمل جهده في البحث عن الانيات الشرعية التي تمكن من اقامة الشريعة بالشكل الذي يعالج الخلل الحاصل في بنية الحياة العامة للامة .

ان فعاليات وانشطة العيارين والشطار لم تكن نشاطا واحدا متصلا على طول هذا العصر ، بل جاء نشاطهم على شكل موجات ، تراوحت كل موجة بين خمس الى عشر سنوات ، تفصل بينها ايضا اوقات من تراجع هذا النشاط تراوحت هي الاخرى عموما بين خمس سنوات وعشر ، وعلى النحو المتابع الاتي :

(٦٤) تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦٥) رسالة الصداقة والصديق ، ٤٨ .

١ - عقد الستينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدا اول نشاط الاغت للتظمر مآرسه العيارون عام (٣٦١هـ) على خلففة التذاعفات المترتبة على تدهور اوضاع المسلمين في مواجهة الدولة البزنطفة وهو أمر الح كئفرا على مشاعر المسلمين ، ذلك ان افة انعكاسة تصفب قفوة الدولة الاسلامفة في مناطق الثغور كانت تذكر المسلمين بأفام عزهم ومجدهم في مواجهة الاخطار الخارجفة ، ثم تجري المقارنة بما آلا فله الحال ، ففبعث ذلك ففهم الففرة والصففة ، واول مكان كانت تظهر ففه اصداء هذه التحوالات هو بغداد بوصفها عاصمة المسلمين وحاضرتهم المنففة ، فقد استفزت اخبصار مناطق الثغور مشاعر البغدادفون ووجدوا ان ما حصل في ذلك العام كان مهفنا للمسلمفون ولدولتفهم ، فبدأت حالة من الاستفهار والتجمع في بغداد طالب ففها جمهور الناس بالجهاد واتخاذ الاجراءات المناسبة لصد الخطر البزنطف ، وقد اعلن كئفر من الناس تطوعفهم للقتال وطالبوا بتوفر المستلزمات المادفة التفف تمكنفهم من القفام بهذه الفرفضة . ولما تبفن ان السلطات الرسمية لا فعفر الامر الجدفة اللازمة ، فله فخذ الامر بالتذاعي بشكل خطفر ، من ذلك ان ملامح العصفة بدأت تحقق بالمكان ، ما لبثت ان تطورت الى فتنة طائففة ، انتهزها العيارون لممارسة نشاطفهم فـ « اظهروا الفساد ، واخذوا اموال الناس » (٦٦) .

واظهرت هذه الواقعة ضعف السلطة وهشاشة بنفثها ، وانفها ففر قاءرة على الضرب بقوة ، لا في الداخل ولا في الخارج ، لهذا تجد العفارفن قد واصلوا نشاطفهم في عام (٣٦٢هـ) على خلففة ما حصل في العام السابق ، مما اضطر بفخفار (عز الدولة) للقدوم الى بغداد من اجل نسكفن الاوضاع ففها وانسفرة ففها ففر ان التفافم زاد في « استولى العيارون والشطار على بغداد وكبسوا الدور وتعرضوا للحرم » حتى اصبح هؤلاء ساءة الموقف في الشوارع والطرقاات والمحال ، فغاب الامن وغاب القافون ففله ، هنا افادت بعض الروافاات ان هذا

(٦٦) ابن الاثر ، الكامل ، ٦١٩/٨ .

التدهور اضطر للسلطات الى القاء النار في الجانب الغربي من بغداد ، حيث احترقت مساحات واسعة ما ذلك الكرخ ، بل ومنع الناس من القيام بايعة اعمال اطفاء للحرائق ، فتأججت النيران «فاخذت يسينا وشمالا فاحرقت اثوبا من الناس والبهائم وكان يوما عظيما لم يجر في الاسلام مثله » ثم اعطت السلطات الامان للعيارين فسكتت الاوضاع^(٦٧) . وفي رواية ثانية ان الوزير ابي الفضل الشيرازي ، ارسل الحاجب صافي لمساعدة صاحب الشرطة في التهدة ، ولما كان هذا الحاجب مبغضا لاهل الكرخ ، لذا امر بالقاء النار في سوق النحاسين لتمتد بعد ذلك الى المناطق الاخرى^(٦٨) . الا ان تأمل الاحداث والقرائن يبعث على الشك في قبول هذه الروايات ، اذ ليس من مصلحة السلطات ، وهي المسؤولة عن توفير الامن للناس والحماية لممتلكاتهم ، ان تقوم بهذا العمل ، اما العيارون فهم جهة ليست مسؤولة ، ويمكن لتصرفاتها ان تكون هي الاخرى غير مسؤولة ، مع توافر الاستعداد للقيام بسلوك غوغائي منفلت ، وهو امر يصرف الشكوك باتجاههم ، ولا سيما ان وقائع مماثلة حصلت في السنوات اللاحقة اكلت المصادر نسبتها اليهم ، فقاموا مثلا في عام (٣٦٣هـ) بالافساد الواسع في البلد ، ونهبوا الاموال^(٦٩) . وقال سبط ابن الجوزي بهذا الشأن : « وكثرت الفتن وكبت المنازل واحترق الكرخ ثانيا »^(٧٠) . وقوله (كبت المازل) لا معنى له الا اذا كان ذلك تحريفا او خطأ طباعيا والصواب هو (كبت المنازل) وهو التعبير الذي درجت المصادر على استخدامه لوصف عمل العيارين ، وعليه فان سياق الخبر يبين ان العيارين هم المعنيون بالحريق الذي اشتعل في عام (٣٦٣هـ) . وقد شهد هذا العام قتل عددا من هؤلاء وصلبهم^(٧١) . اسفر عن هذوء وسكون نسبين في بغداد .

(٦٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٧٨ .

(٦٨) الهمداني ، تكملة ، ٤٢٩/١١ .

(٦٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٥/١١ .

(٧٠) مرآة الزمان ، ١٨٣ .

(٧١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٥/١١ .

في عام (٣٦٤هـ) كان ثمة صراع داخل اجهزة السلطة الدواعي مذهبية وطائفية وهو ما ادى الى ان « زادت ضراوة العيارين وعاد الفساد وخاف التجار على انفسهم واموالهم » (٧٣) . وهنا نود ان نشير الى ان التجار كانوا الهدف الرئيس للحمولات العيارين في حين اذ ذلك لم يشمل اصحاب الحرف والمهن (٧٣) . وفي غضون ذلك اشعل العيارون حريقا ثانيا في بغداد في اواسط شهر المحرم ابتداء بسوق الخسايين ثم توسع ليمتد الى سوق الجزارين واصحاب الحصر (الحصير) وهو امر نجم عنه خسائر فادحة (٧٤) . غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فآفة ظاهرة اجتماعية تبدأ بسيطة عادة ، الا ان استمرارها وتكرارها يضفي عليها ابعادا جديدة . فقد شهدت هذه السنة زيادة امر العيارين « حتى ركبوا الدواب وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الامور واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب » (٧٥) . وهو ما يعني حيازتهم على اموال عريضة تكفيهم لتجهيز انفسهم بهذه الطريقة ، وانهم باتوا منظمين ، فوجود قادة بينهم يعني انهم كانوا على مراتب ، وان تنظيمهم هذا كان هرميا يسكنهم من اصدار الاوامر وتنفيذها وبما يزيد في فاعلية نشاطهم ، وعكس ذلك من ناحية اخرى الضعف الكبير الذي اصاب السلطات الامنية حتى غابت عن الاسواق ، فتولى العيارون حمايتها مقابل مقادير من الاموال تجبى منها .

وقد ذكر التوحيدي القادة الذين افرزتهم هذه الاحداث ومنهم : ابن كبرويه وابو الدود وابو الذباب واسود الزيند وابو الارضة وابو النوايح .

(٧٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٣٥٥/٦ .

(٧٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ١٠٨/٢ .

(٧٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٩/١١ ؛

الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١-٣٨٠هـ) ٢٧٥ ؛ سبط

ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،

١٠٧/٤ .

(٧٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٩/١١ ؛

ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٧/٤ .

وكان هؤلاء يقودون الغارات واعمال السلب والنهب واشعال الحرائق ، حتى
تعذر احيانا وصول الماء الى فواحي من بغداد^(٧٦) . واوردت المصادر قصة احد
هؤلاء القادة (كذا) وهو اسود الزبد ، الذي كان عبدا اوى الى قنطرة الزبد
من قناطر بغداد ، عاش عريانا لا يكاد يستر عورته الا خرقة رثة من قماش ، كان
يجمع النوى ويستطعم من قصد المكان للعب واللهو ، وبقي على ذلك سنوات
لا يؤبه له ، لكن ما شهدته تلك السنة من احداث واسعة النطاق من سلب ونهب
وهرج ومرج ، فبصر هذا العبد ووجد من هو اضعف منه قد اخذ سيفا وتقوى
به على السرقة ، فطلب هو ايضا سيفا واشترك في السلب والنهب ، حتى ظهر
منه ما لم يكن بحسبان احد ، واصبح صاحب مال كثير ، ثم وجد نفسه مقدما
في اصحابه فـ « صَبَّحَ وجهه وعَذَّبَ لفظه وحَسَّنَ جسمه » هنا جعله
اصحابه قائدا عليهم واطاعوه وفرق فيهم الاموال ليصبح بعد ذلك رئيسا
فيهم^(٧٧) . وبلغ من سعة حاله ان اشترى جارية بالف دينار لكنها تمنعت منه
واظهرت كراهته ، فاعتقها ومنحها الف دينارا ايضا مظهرا فتوته ووسماحته^(٧٨) .
ان الاضطرابات الواسعة التي وقعت عام (٣٦٤هـ) اضطرت الى استدعاء
احد القادة (ابو تغلب) الى بغداد لضبط الامن فيها ، فقتل جماعة من العيارين
والشطار^(٧٩) . وربما تسبب ذلك في تفرق شأفهم ، حتى ان اسود الزبد نفسه
رحل الى الشام ومات فيها^(٨٠) . وهكذا انتهت هذه المرحلة من نشاط العيارين

(٧٦) الامتاع والموانسة ، ١٦٠/٣ .

(٧٧) نفسه .

(٧٨) الهمداني ، تكملة ، ٤٣٥/١١ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٧ ؛ ابن كثير ،

البداية والنهاية ، ٢٧٩/١١ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام

(٣٥١-٣٨٠هـ) ٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن

تفري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٨/٤ .

(٧٩) الهمداني ، تكملة ، ٤٣٥/١١ .

(٨٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٩/١١ ؛

ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٨/٤ .

في بغداد لتستقر الاوضاع فيها قرابة خمس عشرة سنة ، التي ربما لم تخل من
انشطة صغيرة متفرقة لكنها لم تبلغ مستوى السنوات السابقة في
الفاعلية والتأثير .

ب - عقد الثمانينيات من القرن الرابع للهجرة :

في عام (٣٨٠هـ) اشتدت الفتنة في بغداد بين اهل باب البصرة واهل الكرخ
وامتدت هذه الفتنة الى العيارين افسهم الذين كانت سطوتهم قد امتدت الى
جانبى بغداد ، وصار لكل فريق منهم (امير) وفي كل محلة (متقدم) منهم
فزاد اذاهم على الناس ، لقد افتن العيارون بينهم حتى احرق بعضهم محال
بعض (٨١) . ولم تجسر السلطات على الدخول بينهم (٨٢) . ثم جرى تعيين ابي
محمد بن مكرم الحاجب على السلطة ، واتسمت سياسته بالشدّة الكبيرة تجاه
هذه الفتنة ، فهرب من هرب وقبض على كثيرين منهم ، فاستقامت الامور ، ثم
استغفى بعدها من منصبه (٨٣) .

في اوائل عام (٣٨١هـ) غادر بهاء الدولة بغداد ، مخلفا وراءه نوعا من
انفراغ الامني ف (كثرت فتن العيارين) حتى تحاربوا بينهم كل يتعصب لمحلاته
ودربه ، فأعيا ذلك السلطات القائمة ، واستمرت عمليات السلب والنهب
وتعاقب على منصب (صاحب المعونة) عديدون عجزوا عن القيام بعمل حقيقي
لإحد من اعمال العيارين (٨٤) . الا ان عودة بهاء الدولة الى بغداد غير
مجري الامور اذ جرى تتبع هؤلاء وقتلهم ، فسكنت الاحوال مرة اخرى
وكان في جملة من قبض عليهم من العيارين قائد لهم يدعى (ابو جوامرد) كانت

(٨١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٥٣/٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام
٣٥١-٣٨٠هـ (٤٨٧) .

(٨٢) سبط ابن الجوزي ، مرآ الزمان ، ٢٣٧ .

(٨٣) ابو شجاع ، ذيل تجارب الامم ، ١٨١ .

(٨٤) نفسه ، ١٨٧ .

السلطات تستعين به لحراسة الاسواق في ايام (صمصام الدولة) فاطلقه بهاء الدولة ليستمر في عمله هذا^(٨٥).

وفي عام (٣٨٤هـ) تفاقم نشاط العيارين وقادهم زعيم يدعى عزيز البابصري من اهل باب البصرة ، التف حوله عدد كبير من هؤلاء الاتباع ومن اهل الفساد ومما ميز فعاليتهم في هذه السنة اشعالهم النيران في المحال والدروب ، بل انهم نجحوا في تتبع رجال الشرطة لقتلهم ، كما انهم قاموا مرة اخرى بفرض الضرائب على الاسواق وجباية وارداتها ، ومدوا نشاطهم هذا ليشمل السفن في دجلة فارضين على اصحابها الضرائب ، ثم اشتدت الحملة عليهم ، فهربوا وهرقوا^(٨٦) ويعتقد ابن كثير ان القصص التي قيلت في احمد الذهب وما شاع عنه من حيل كان المعني بها البابصري او احد اتباعه^(٨٧) . ودون سبب حقيقي ظاهر خفت نشاط العيارين مرة اخرى خمس سنوات ، ليظهر من جديد في عام (٣٨٩هـ) .

ج - عقد التسعينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدأت الموجة الثالثة من أنشطة العيارين في عام (٣٨٩هـ) اذ تمت الاستعانة بهم في تصفيات داخل جهاز الحكم^(٨٨) . مما يشير الى تفاقم وجودهم من جديد ، وفي عام (٣٩٠هـ) بات خطرهم كبيرا ، اذ لم يكتفوا بكبس يسوت الناس ليلا ، بل فعلوا ذلك (فهارا جهارا) فأخذوا الاموال وقتلوا الناس وصارت شوكتهم قوية ، لينضم اليهم علويون وعباسيون . ثم عين (بهاء الدولة) عميد الجيوش للتدبير امر العراق والحد من نشاط العيارين ، فطاردهم

(٨٥) السابق ، ١٩٩ .

(٨٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٧٤/٧ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ١٠٦/٣ .

(٨٧) البداية والنهاية ، ٣١٢/١١ - ٣١٣ .

(٨٨) الصابي ، تاريخ هلال ، ٦-٥/٨ .

وقبض على جماعات منهم ، واعمل فيها القتل والتغريق ، لهذا سكن الامر بعض الشيء (٨٩) . بعدها تجددت الاضطرابات مرة اخرى في العام اللاحق (٩٠) .

وفي عام (٣٩٢هـ) كان الامر فادحا ، ففي شهر رمضان زاد نشاط العيارين من العلويين ، فواصلوا (العمليات) واخذوا اموال الناس (٩١) . وكان الامر يزداد سوءا يوما بعد يوم ، حتى انهم فجحوا في كبس دار احد المسؤولين ، وهو الناظر في ديوان المواريث وبعض الشؤون المالية ، لكن هذا لم يكن موجودا في بيته ، كما انهم قتلوا بعض المسؤولين والوجوه (٩٢) . وامام هذه المخاطر الكبيرة اضطر اعيان بغداد للهرب من مدينتهم الى البطيحة - احوار - والكوفة وغيرهما للخلاص بانفسهم واموالهم ، فاعيد عميد الجيوش مرة اخرى الى بغداد ، وازاء ذلك هرب الكثير من العيارين والسطار ، فجد في طلبهم ولاسيما العباسيين والعلويين منهم ، وكان يقرن العباسي بالعلوي ثم يفرقهما في النهر بمشهد من الناس ، ونجحت هذه السياسة المفرطة في القسوة في تحقيق نوع من الهدوء في بغداد (٩٣) . وما ذكره ابن الاثير بشأن احداث تتعلق بعام (٣٩٣هـ) (٩٤) . نعتقد انه يعود الى العام السابق لتشابه الاحداث بين ما ذكرته المصادر بشأن عام (٣٩٢هـ) وما ذكره هو بشأن عام (٣٩٣هـ) وهو العام انذي لم تشر المصادر الى اية احداث قد وقعت فيه ، وفي الوقت نفسه لم يشر ابن الاثير من جانبه الى ما وقع في عام (٣٩٢هـ) .

(٨٩) الذهبي ، المعبر ، ١٧٨/٢ .

(٩٠) الصابي ، تاريخ هلال ، ٧٥-٧٦/٨ .

(٩١) نفسه ، ١٠٥/٨ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢١٩/٧ .

(٩٢) الصابي ، تاريخ هلال ، ١١٥/٨ .

(٩٣) نفسه ، ١٠٧/٨ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢٠/٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٠/١١ .

(٩٤) الكامل ، ١٧٨/٩ .

بعد ذلك لم تذكر المصادر شيئاً من فعاليات العيارين حتى عام (٥٣٨٠هـ) الذي تجدد فيه نشاطهم ، فطاردتهم الشرطة وشردتهم لتهدأ الأحوال مرة أخرى (٩٥) مدة عشر سنوات ، تجددت بعدها فعاليات العيارين في عام (٥٤٠٨هـ) وفيها اسرفوا في تتبع اموال الناس والسطو عليها (٩٦) .

د - احداث الاعوام (٤١٥-٤٢٨هـ) :

وهي اطول مرحلة اتصل فيها نشاط العيارين ، ومثلت في الوقت نفسه ذروة نشاطهم ، بدأت فيها الاضطرابات في شهر رجب من عام (٤١٥هـ) وتواصلت حتى نهاية عام (٤١٦هـ) . بدأت الاحداث على شكل فتنة بين العيارين والعامّة من جهة والجند الاتراك من جهة أخرى ، قام فيها الجند باحراق محلة طاق الحرائق انتقاماً من اهلها ، وفي غضون هذه الاحداث احرق العيارون دار الشريف المرتضى ونهب ما تبقى منها ، ومما ميز عملياتهم ايضا نهبهم الدور في وضوح النهار ، اما عملياتهم الليلية فجرت تحت اضواء المشاعل ، دون اي تكتم ، متحدّين الشرطة ، فكافوا يدخاؤون على الرجل من اصحاب الاموال مطالبين اياه باستخراج ما عنده من اموال وذخائر مستخدمين الضرب في ذلك . فيستغيث الرجل ولكن لا مغيث ، كما افهم مارسوا القتل دون رادع ولا وازع ثم اشتد عداؤهم للجند الاتراك ، ولم يكن لاصحاب الشرطة من بد الا ترك البلد ، فاضطر الناس الى وضع الابواب على الدروب وكانت تغلق ليلاً ، لاجل دخول دون اقتحام العيارين لها ، الا ان ذلك لم يغن شيئاً (٩٧) . ويبدو ان وفاسة (شرف الدولة) في هذه السنة كانت فرصة طيبة لتأجيج الهوى والاضطراب

-
- (٩٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٣٧/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٨/١١ .
 (٩٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٨٧/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/١٢ .
 (٩٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩/١٢ ؛
 انظر ايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٣٤٩/٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، مسرأة الزمان ، ٢٢٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢٣٠/٢ ؛ ابن العماد ، شذرات ، ٢٠٤/٣ .

بوجه السلطات^(٩٨) . وهو ما رافقه ايضا الصراع داخل اجهزة السلطة نفسها حول المناصب والمصالح .

وفي مطلع عام (٤١٧هـ) وصلت بغداد فرقة من الجند (الاصفهلارية) لحفظ الامن فيها وقمع نشاط العيارين ، فكتبوا الكتب اليهم بالانصراف عن البلد ، غير ان الاستهانة بلغت بالعيارين مبلغا كبيرا ، اذ خرجوا باقتسام السي معسكر هؤلاء الجند يصيحون عليهم بالسب والشتيم ، ثم وقع القتال بينهم حتى لبس الجند عدة الحرب وقرعوا الطبول ، وتطور الامر الى ان هاجم الجند محلة الكرخ ، اكبر اسواق بغداد التجارية ، و (وقعت النار) فاحترقت اسواق ومحال كثيرة ، ورافقتها اعمال نهب واساب واسعة النطاق استمرت يومين ، والابد من ملاحظة ان اعمال النهب هذه مارسها الجند والعامّة والعيارون على حد سواء . وهو ما دفع الشريف المرتضى بالتقدم لمقابلة الخليفة ليطلعه على تفاصيل ما حدث ، مستجيبرا به وطالبا فرض الامن في البلاد ، فخلع غاييه الخليفة ، ثم شدد الاصفهلارية قبضتهم لضبط الاوضاع ، بعدها فرضت على الناس مصادرات واسعة^(٩٩) اعقبها فرصة للهدوء النسبي حتى عام (٤٢٠هـ) لتنبعث أنشطة العيارين مرة اخرى^(١٠٠) .

في العام اللاحق تفاقم الامر كثيرا ، ففي مطلع شهر صفر منته كبس خمسون عيارا دار احد الاشخاص في محلة نهر الدجاج ، فقتلوه وقتلوا من كان معه ، ثم احرقوا الدار ، دون ان يجرؤ احد من الجيران على فعل شيء خوفا من اعمال الانتقام ، وكان هذا في الجانب الغربي ، اما في الجانب الشرقي من المدينة فقد استشرى فيه نشاط احد قادة العيارين يدعى (البرجمي) السذي تمكن من بلوغ بعض مخازن الامتعة والمؤن ، فنهب شيئا كثيرا منها ، وقد

(٩٨) ابن العماد ، ثلثرات ، ٢٠٤/٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ٥٤/٤ .
(٩٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٤/٨ - ٢٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٠/١٢ .
(١٠٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٠/٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٣٩٣/٩ .

لقي الناس منه اذى كبيرا^(١٠١) . ثم توسع نشاط البرجمي في شهر شوال فقطع مع اتباعه درب عليّة ودرب الربيع وفتحوا ما وجدوه من مخازن وخانات سالبين ما قدروا على حملته ، كما كبسوا عددا من الدور واستواوا على ما فيها^(١٠٢) .

وفي عام (٤٢٢هـ) تفاقم الامر كثيرا مرة اخرى ، فقد كانت الفرصة للعيارين طيبة باشتعال نار الفتنة في شهر ربيع الاول ، فدخلوا البلد منتشرين في اسواقها ودروبها ، ومارسوا ما يحلو لهم من انشطة وفعاليات ، فكثرت (العملات) ليلا ونهارا ، ولما تجددت الفتنة في شهر شوال من العام نفسه تجدد نشاط العيارين ايضا^(١٠٣) . فثار اهل الكرخ بهم بعد ان سرقوا من اصحاب الاكسية امتعة كثيرة ، ثم هربوا ، ورابط التجار في دكاكينهم ليلا ونهارا ، كما قاموا بمكاتبة (حاجب الحجاب) بان يتخذ ما يلزم لحماية الامن فاعيد ابو محمد النسوي الى منصب صاحب الشرطة ، اذ شددت الشرطة من اجراءاتها فقتلوا احد العيارين ونهبوا الدار التي استتر بها ، وبعد هدوء نسبي جدد العيارون نشاطهم ، حتى اضطر صاحب الشرطة الى الهرب ، فعادت الفتنة الى بغداد^(١٠٤) . ثم تجرأ العيارون على دار السلطنة فقبوها واخذوا منها قماشاً^(١٠٥) .

وفي العام اللاحق ، وفي مطلع صفر منه ، ثار تجار الكرخ بالعيارين مرة اخرى ، فهربوا وطوردوا وكبست دورهم واخذت اسلحتهم ، وكتب التجار الى السلطات طالبين العون ، غير ان العيارين لم يلبثوا سوى ايام قليلة ثم عادوا لممارسة نشاطهم ، فكبسوا دار احد الوعاظ ، ليأخذوا ماله وما اودعه الناس

(١٠١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٨/١٢ .

(١٠٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٠/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣١/١٢ .

(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .

(١٠٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٤/٨ .

(١٠٥) الذهبي ، المعبر ، ٢٤٥/٢ .

عنده من مال ، وعادوا الى كبس دور الناس حتى اصبح ذلك ساوكم الرئيس واختلط بهم في هذه الممارسة عدد من الاتراك وحواشيهم^(١٠٦) . وقاد زعيمهم البرجمي عملية سطو كبيرة على احد الخانات ببغداد ، فنهب وقتل . كما فرض الضرائب على السفن الصاعدة والمنحدرة في دجلة ، وما استجد في عمله ، انه لم يكتف بنهب الدور ، بل كان يختم ذلك باحراق الدور التي نهبها . كل ذلك كان يجري والسلطات عاجزة ترقب الاوضاع وحسب^(١٠٧) . ثم اعيد ابن النسوي الى الشرطة في بغداد ، فاجتهد في دروع العيارين وقمع نشاطهم^(١٠٨) . وفي عام (٤٢٤هـ) بلغ نشاط العيارين درجة خطيرة جدا من السلب والنهب وتحدي السلطات ، ولما تجرأ احد قادة الجند على اعتقال اربعة من العيارين قام (عقيدهم) باخذ اربعة من جند ذلك القائد ، ثم تقدم الى داره لمفاوضته في الامر ، الا ان هذا لم يجرؤ على الخروج من داره ، بل كلم العيار من داخلها اذ اتفق الطرفان على اطلاق ما احتجز من اتباع^(١٠٩) . وفي اواخر شهر صفر كبس البرجمي درب ابي الربيع ووصل الى مخازن فيها اموال كثيرة جدا . وشاع بين الناس ان جماعة من الجند الاصنفهاربة يتعاونون معه ، وهو امر افزع الناس وايقنوا بتلف اموالهم فنقلوها الى دار الخليفة للامان السذي (تنعم) به ، ولاسيما بعد ان زاد عدد الجند الذين يحرسونها ، كما قام التجار بالمرباطة في اسواقهم ليلا ونهارا . وفي هذه الاجواء قتل صاحب الشرطة غيلة . فكان لا بد لهذا الحدث ان يترك اثاره الواضحة في مزيج من التدهور في الاوضاع . فقد زادت العملات ، وكبست دار احد التجار التي اخذ منها عشرة الاف دينار . وبلغ الرعب بالناس انهم لم يكونوا يجرؤون على ذكر اسم البرجمي ، بل يذكر بوصفه القائد ابي علي ، احتراماً وتعظيماً لشأنه . وامام

(١٠٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٦٢/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٤/١٢ .

(١٠٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٦٦/٨ .

(١٠٨) نفسه ، ٦٦-٦٧/٨ .

(١٠٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٢/٩ .

هذه الاوضاع قرر قادة الاصفهلاوية الخروج بقوتهم العسكرية الى حيث
يعسكر البرجمي واصحابه ، وكان المكان عبارة عن اجمة كبيرة من ماء وقصب
امتدت خمسة فراسخ (= ٣٠ كغم) وفي وسطها تل اتخذه قائداهم معقلا ومنزلا
له ، فحوصر المكان الا ان البرجمي خرج اليهم (كذا) وخاطبهم بقوله : من
العجب خروجكم الي ، وانا عندكم في كل ليلة ، فان شئتم ان ترجعوا وانسأ
اتيكم ، وان شئتم الدخول الي فافعلوا ، غير ان جماعة من الاصفهلاوية راسلوه
سرا وشلدوا من امره ، فعاد الجند دون فعل شيء (١١٠) .

وفي جمادى الاولى من العام نفسه (٤٢٤هـ) زادت عمليات العيارين
وكبساتهم للدور مرة اخرى ، وعمت القوضى مناطق واسعة من بغداد ، فاحترقت
الاسواق ونهب درب عون واخذت ابوابه ، ونهب درب القراطيس ايضا
والفروع التي تؤدي اليه (١١١) . وكان الامر يزداد تفاقمًا في كل يوم ، ولم تنفع
ايه اجراءات لردع العيارين ، بل ان صاحب الشرطة اضطر نفسه الى الاختفاء .
وبلغ الامر حدا خطيرا في اواخر شهر شوال ، مما حدا العامة على الثورة في
جامع الرصافة ومنعوا الخطبة ورجعوا الخطيب في يوم الجمعة ، وقالوا : اما
ان تخطب للبرجمي ، والا فلا خطبة لخليفة او لملك ، عندها اضطرت السلطات
الى تشديد الاجراءات وعين ابو الفنائم بن علي على المعوفة ، فقتل جماعة من
العيارين ، فهذأت الاحوال نسبيا (١١٢) . لقد بلغ من سخرية الاوضاع ان احد
(وجوه القادة) الاتراك اراد ان يختن ابنه فلم يقدر على ذلك حتى اهملدى
للبرجمي هدايا قيمة ، طالبا منه الذمة والحماية على داره في اثناء الحفل ، كسل
هذا التدهور في الامن وبغداد فيها عشرون الفا من العسكر والجند (١١٣) .

(١١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٦٣

(١١١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ .

(١١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٨ .

(١١٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٣ .

ولم يكن عام (٤٢٥هـ) اقل مأساوية من الذي قبله ، فقد وقعت الفتنة ببغداد التي كان من طرائقها انتقال عدواها الى العيارين اقسهم ، فتحزب كل فريق منهم الى طائفته ومذهبه^(١١٤) . اذ كمل عيارو الكرخ مجانيق مذهبة استصحبوها معهم في زيارة المشهد الحائري في منتصف شعبان ، فقام اثنان من وجوه العيارين ، كانا قد تابا وعملا في دار الخلافة ، بصنع مجانيق مماثلة صحبوها معهم برفقة عدد من اتباعهم السابقين من العيارين الى قبر مصعب بن الزبير في الاول من رمضان^(١١٥) . وكل ذلك كان من الامور التي ابتلعت في حينه ، وكل كان يريد كيد الطرف الاخر ، فعاد العيارون الى الالتشار ومواصاة كبساتهم بالليل والنهار ، باسطين سطوتهم على كل شيء ، من ذلك ان البرجمي اتفق مع عامل المآصر الاعلى بقطيعة الرقيق ، بان يعطيه هذا في كل شهر عشرة دنائير من وارد المآصر وان يسمح بمرور سميرتين - وهي من سفن النقل - بغير اعتراض ، مقابل تعهد البرجمي بتوفير الحماية لهذه المآصر . ثم عاث هذا فسادا في الجانب الشرقي ، ودخل خانا يدعى بخان القوارير ، ونهب منه شيئا كثيرا ، ثم حاول بسط قهوضه على الجانب الغربي ايضا ، الا انه لم يفلح في ذلك كما يبدو . بسبب قيام الناس بحراسة محالهم ودروبهم^(١١٦) . في حين نجح في كبس دار مجاورة لدار الوزير^(١١٧) .

وبلغت الاستهانة حدا ان طلب البرجمي ان يتولى هو منصب صاحب المعونة وحفظ الامن ، فاجيب الى ذلك ف « وجدت (أي حصلت) فضائح لم يدون مثلها » ثم ادخل العيارون ايديهم في « اعمال السلطان وجبوا البلد » كما « عملوا لهم اعلاما مذهبة وتسموا بالقواد وغابوا ببغداد من الجانبين ، وبذل (معتمد الدولة) للبرجمي مالا كثيرا »^(١١٨) . وعند هذا الحد كان العيارون

-
- (١١٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .
 (١١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٨/٨ .
 (١١٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٦-٧٧/٨ .
 (١١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ .
 (١١٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

قد ملكوا الامور فعلا . واصبحوا هم السادة والحكام ولم يكن امامهم سوى اعلان سقوط السلطة البويهية واعلان حكومة اخرى غيرها و (تحرير) الخلافة من تغلب هؤلاء . الا ان شيئا من ذلك لم يحصل ، لان هؤلاء لم يكونوا يمثلون اية مقاومة للتغلب البويهي ، وليس لهم ادنى تصور سياسي عن الدولة والسلطة والحكم ، وجل ما يعنيه ان تكون السلطة في اضعف احوالها ، فذلك ما يمثل المناخ الامثل لممارسة نشاطاتهم في السطو والسلب والنهب ، وهذا يفسر تصديهم في بعض الاحيان لرجال الشرطة والسلطة ، الان هؤلاء خصومهم الحقيقيون في انشطتهم ، وقوة هؤلاء تعني الحد من نشاطاتهم في السرقة اللصوصية في حين ان ضعف اجهزة الشرطة واستهدافها يتيح لهم حرية في فعاليتهم وانشطتهم ، ان العيارين لم يفكروا قط في تغيير شيء من معالم السلطة السياسية ، لانهم لا يدركون من ذلك شيئا لبسطة عقولهم ومحدودية ثقافتهم وجهلهم في آليات بناء الافكار وتوجيهها الوجهة الصحيحة غير السلب والنهب .

اما نهاية البرجمي هذا ، فكانت قاسية ، اذ قبض عليه ثم جرى تغرقه في روايتين مختلفتين ، نسبت الاولى لقرواش القيام بهذا العمل ، اذ جاءه البرجمي ملتمسا منه اطلاق احد الاشخاص الذين قبض عليهم ، لمودة كانت بينهما ، غير أن قرواشا لم يعر ذلك ادنى رعاية ، بل افه قبض على البرجمي الذي اغراه بالمال الكثير ، فلم يغن عنه ذلك شيئا ، فغرقه (١١٩) . وفي رواية اخرى ان (معتمد الدولة) نجح في القبض عليه في منتصف رمضان من عام (٤٢٥هـ) فغرقه في النهر رافضا الرشوة التي عرضها عليه ان هو اطلعه (١٢٠) . بعد ذلك جرت محاولات لاستصلاح شأن العيارين بالتوبة والعمل في دار الخلافة او ان يتركوا الباد ، ومنحوا لذلك مهلة امدها ثلاثة ايام ، فخرج معظمهم ممن

(١١٩). ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ .

(١٢٠). ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

بغداد ، لكنهم لم يلبثوا الا يسيرا ثم عادوا من جديد ، فكثر الفساد ايضا ، حتى إن صاحب الشرطة اضطر للاستغناء من منصبه خوفا على نفسه من بطشهم ولعجزه عن فعل شيء ازاھم (١٢١) .

وفي عام (٤٢٦هـ) تجددت الفوضى في بغداد ، وواصل العيارون عملاتهم ليلا ونهارا « ولا مانع لهم لان الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم » (١٢٢) . واستشري امرهم ف (فتكوا وقتلوا) فقتل صاحب الشرطة منهم رجلا ، فقتلوا اثنين ، ثم احتشدوا لمقاتلة صاحب الشرطة نفسه واستعد هو لقتالهم ، عندها لجأ العيارون الى الاحتباء بدور الجند الاتسراك يقيمون فيها نهارا ويخرجون منها ليلا لممارسة نشاطاتهم . ثم كتبوا رقاعا والقوها في الطرقات يطلبون فيها اقضاء ابي الغنائم عن منصبه كصاحب شرطة مقابل حفظهم البلد ، فعم الفساد ومنع السقاؤون من حمل الماء الى بعض المحال واصيبت السلطات بخذلان كبير فسيطر العيارون على بغداد (١٢٣) . و « ماكوا انجابين ولم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة حكم » (١٢٤) . وهنا ظهر منهم كل سوء في الخلق ف « كاشفو بالاخطار في رمضان وشرب الخمر وارتكاب الفروج » كما اشعلوا الحرائق في الاسواق والمحلات مع اعمال سلب ونهب متواصلة (١٢٥) . وكان السلطات اسلمت الامر والقيادة لهؤلاء فعليا يعيشون في بغداد فسادا دون وازع او رادع . ليكون ذلك الفراغ السياسي والامنّي الثاني الذي ظهر في بغداد ولم يتمكن احد من انتزاع المبادرة واعلان سلطة سياسية حقيقية تمسك الامور بقوة وتنقذ البلاد من الفساد المستشري ، ويعود ذلك ببساطة الى انه لم تكن هناك اية قوة حقيقية تتولى هذه المسؤولية اخو

(١٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ .

(١٢٢) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٤٠/٩ .

(١٢٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٢/٨ .

(١٢٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٩ .

(١٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٣/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

بغداد من اية جهة سياسية قادرة على استغلال مثل هذه الفرصة . ولم يكن سبات الخليفة قد اتقضى اجله بعد ، فكان اضعف من ان ينفخ الروح مرة اخرى في مؤسسة الخلافة وكان العجز واضحا واشهر من ان يشار اليه .

وفي الحرم من عام (٤٢٧هـ) كبس العيارون دار احد القادة الاتسراك (بلور بك التركي) في محلة باب خراسان واخذوا ما فيها ، بعدها بثلاثة اشهر هاجموا دار صاحب الشرطة (ابن النسوي) واحرقوها ، وكانوا قرابة المئة رجل ، ثم فتحوا احد الخانات ونهبوها على مسمع ومرآى من الناس ، ولا احد يجرؤ على تحريك ساكن (١٢٦) . وفي جمادى الآخرة من العام اللاحق هاجم العيارون احد السجون بالجانب الشرقي ، واخذوا منه رجالا معينين ثم قتلوا سبعة عشر من رجال الشرطة (١٢٧) . كما تهادوا في اعمالهم التي استهدفت بسطاء الناس ايضا مثل السقائين ، اذ سلبوهم بغالهم ، واخذوا من القصارين ثيابهم (١٢٨) .

هـ - المرحلة الاخيرة من نشاط العيارين :

يبدو ان الاجواء ببغداد تمتعت ببعض الاستقرار اكثر من عشر سنوات اذ خفت نشاط هؤلاء بشكل مفاجيء وهم في ذروة فعاليتهم وسطوتهم وقهوذهم ، وليس في المصادر ما يفسر سبب هذا الهدوء ليظهر من جديد في عام (٤٤١هـ) بشكل لافت للنظر من جديد . فاشتدت شوكتهم في الجانب الغربي من بغداد ، حتى اضطر كثير من الناس الى ترك مساكنهم والانتقال الى القسم الشمالي من الجانب الغربي (منطقة الحرم) فاشتروا الخرابات وعمروها (١٢٩) . ونجح العيارون في عام (٤٤٣هـ) في كبس صاحب الشرطة ابي محمد بن التسوي

(١٢٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٨٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢/٢٥٥ .

(١٢٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٩١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٤٠ .

(١٢٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٩١ .

(١٢٩) نفسه ، ٨/١٤٢ .

نفسه واصابوه بجروح عديدة^(١٣٠) . وفي العام اللاحق اشتدت الفتنة في بغداد ، فظهر العيارون مجددا ، فنهبوا الاسواق واخذوا الاموال ، وكان على رأسهم زعيمان هما الطقطقي والزبيق^(١٣١) .

تراجعت نشاطاتهم بعد ذلك الى حد كبير ، مع ان السلطة كانت قد بلغت ادنى ضعف لها حيث سقطت في عام (٤٤٧هـ) بمجيء السلاجقة وسيطرتهم على بغداد ، ويندو ان نشاط العيارين تراجع من نشاطات كبيرة لافتة للنظر الى نشاطات صغيرة يقوم بها الافراد بصفاتهم الفردية معتمدين الحيلة والدهاء والمكر ، بدلا من القوة الكبيرة المكونة من رجال كثيرين ، وذلك ما يمكن استنتاجه من اسم الزبيق نفسه الذي يوحي بالعجز عن الامساك به ، وهو أمر دل على خفة في الحركة وسرعة في النشاط ، وهذا من سمات النشاط الفردي لا الجمعي ، عليه فان اختفاء اخبار العيارين في هذه المرحلة لا يعني انعدامها كليا بل تحول الى أنشطة فردية صغيرة .

النتائج وتحليل المعطيات :

لم تذهب اراء الباحثين في تاريخ حركة العيارين واثبطار ابعاد من القراءة الظاهرية لوقائع تاريخها ، فوصفت بانها ثورة شعبية رمت الى التصدي البويهيين والتصدي لاصحاب الاموال ، غير ان تحليل معطيات تاريخ هذه الحركة والحشيات التي نشأت في ظلها تشير الى اتجاهات بعيدة عما ذهب اليه هؤلاء الباحثون .

فقد نشأت هذه الحركة منذ اواسط القرن الثاني للهجرة واستمرت عقودا طويلة من الزمن بوصفها رد فعل طبيعي على الاوضاع الاقتصادية السيئة وتفشي الفقر في طبقة العامة واتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء ، حتى لم يبق نمة امل امام المعدمين بامكانية تحسين اوضاعهم المعيشية ، فعانى هؤلاء حالة اجباط

(١٣٠) نفسه ، ١٥١/٨ .

(١٣١) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٩١/٩ .

شديد وعجز كبير ، وكان لابد ان تتولد عنه معطيات خطيرة من القوة والعنف والسعي للحصول على الاموال بغض النظر عن الطريقة والوسيلة . لهذا تجدهم قد وضعوا نصب اعينهم ثروات الاغنياء ولاسيما التجار منهم . ان هذه الحثيات التي وقعت وراء نشوء هذه الحركة استمرت طوال وجودها ، فلم تشهد الاوضاع الاقتصادية اي تحسن يمس اوضاع هؤلاء ، فكان الابد للحركة من ان تستمر وتشتد كلما ازدادات الاوضاع سوءا .

عليه ، ومن الناحية البدئية ، فانه لم تكن هناك اية حثيات سياسية وقعت وراء النشأة الاولى لهذه الحركة ، اذ لم يكن في الاوضاع السياسية ما يدفع هؤلاء للتمرد عايتها ، بيد ان ظهور الصراع بين الامين والمأمون ثم بين المستعين والقادة الاثراك ، خلق مناخا سياسيا عاما في بغداد كان جديدا في معالمة . فقد كان الخليفة الشرعي في خطر ، وبرز الخليفة في كلتا الحالتين مدافعا عن حقه فقادة الجيش والعامه ، التي استجابت لدواعي الخليفة في الدفاع عن حقه هذا ، وهكذا انخرط العيارون في الصراع مناصرين لخليفتهم ولمدينتهم التي كان الخطر محدقا بها .

اما بشأن الخلافة التي نحن بصددھا والمتعلقة بسوقف العيارين ازاء السلطة البويهية وطبيعة العلاقة المترتبة بينهما ، فيحسن بنا ان نأخذ المعالمة الاتية بنظر الاعتبار :

● ان مفهوم (المقاومة) الشعبية المسلحة ، هو من المفاهيم الحديثة تباورت في ضوء حركة الاستعمار التي اجتاحت العالم بعد حركة الاستكشافات الجغرافية ، ومن ثم فان هذا المفهوم كان غائبا عن الساحة السياسية والفكرية ، وبما ان المفاهيم هي التي ترسم حدود حركة الانسان واتجاهاتها ، لذا غياب مفهوم ما عن الساحة الفكرية يعني استحالة تفسير اي سلوك او ظاهرة سياسية من ضوئه ، ولاسيما مع وجود مفاهيم اخرى كان لها دورها السياسي والفكري في حينه .

● وفي هذا الاطار فان مما يجب ان يوضع في الحسبان عند مناقشة اية ظاهرة اجتماعية او سياسية هو تعرف المناخ الفكري السائد الذي نشأت الظاهرة في اطاره العام . فقد كانت الشريعة الاسلامية والافكار الاسلامية هما المناخ الذي تحركت في ظاه معطيات تاريخنا الاسلامي . وهذا المناخ الفكري لم ينظر الى البويهيين بوصفهم اجانب او غزاة ، بل هم مسلمون متغلبون ، تغلبوا على السلطة ، والمتغلب في ضوء المعالم الشرعية له كلمة نافذة ، ولاسيما ان البويهيين ابقوا على الخليفة ، وان كان ذلك اسما ، ولهذا لم نجد ايا من الفقهاء او العلماء افتى بوجوب الخروج على هؤلاء بالسيف او التصدي لهم بالقوة ، ليس لان هؤلاء المتغلبين كانوا على صواب تام وحازوا الشرعية التامة ، ولكن لم يكن الخروج عليهم بالسيف لازما في حينه ، وفي مثل حالتهم يكون التصدي لهم بوسائل اخرى غير السيف ، من ذلك المقاطعة وعدم معاملتهم ، ان الخلفاء العباسيين انفسهم لم يقودوا مقاومة حقيقية لهؤلاء في بغداد على غرار ما فعله الامين والمستعين ، لهذا لم يكن هناك ما يعبى العامة ويحشدونها نحو التصدي للبويهيين . والعامة ليست هي التي تبني الافكار او تقود الجماعات بل العامة تكون عادة متقادة ، فلما لم يكن هناك من يقودها ، لذا لم يكن منتظرا منها ان تفعل ما هو خارج قدرتها . وقد تبين من خلال العرض السابق في سياق البحث ان سلطة البويهيين بلغت درجة كبيرة من الهشاشة والضعف الا ان ذلك قابله فراغ سياسي من الجانب الاخر ، فلم تكن ثمة قوة تتولى قيادة الامور والاستيلاء عليها والخليفة نفسه قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزا عن القيام بفعل حقيقي وجاد ضد البويهيين .

● ان هدف تغيير السلطة لم يكن ظاهرا ولا فاعلا على اي مستوى فكري او سياسي . وغياب الهدف يعني غياب القوة المحركة والدافعة نحو الهدف نفسه ، فمن العقم ان توصف افعال العيارين بانها مقاومة مع غياب هدف،

تغيير السلطة من الازهان • ومجرد الموافقة في الشكل لا يعني وجسود مثل هذا الهدف • فتصدي العيارين للشرطة وبعض رجال السلطة لا يعني ان ذلك يمثل مقاومة سياسية • بل جاء تصديهم لهم لكونهم المعسوق لانشطتهم في السلب والنهب • لهذا كان تصديهم لهم في الحقيقة على قدر عرقلة هؤلاء لفعالياتهم وانشطتهم هذه • لذا لا تعد توصيفات من قبيل المقاومة والثورة الشعبية سوى عماية اسقاط لمفاهيم حديثة على وقائع تاريخية لا تمت لهذه المفاهيم بصلة •

● لقد كشفت حركة العيارين والشطار عن عجز الدولة والمجتمع عن معالجة الاوضاع الاقتصادية المتدهورة ، وهو أمر كان لابد ان يترتب عليه انبثاق ظواهر خطيرة شكلت ردود فعل سلبية على هذا العجز والاحباط الذي اصاب القطاعات الفقيرة من المجتمع ، اذ أسفرت هذه الاوضاع عن حركة العيارين والشطار بكل تداعياتها السلبية والايجابية •

المصادر والمراجع :

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (بيروت : د/ت) .
- ان تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (القاهرة : د/ت) .
- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (بغداد : ١٩٩٠)
- تلبيس ابليس (القاهرة : د/ت) .
- الاذكياء ، تحقيق : محمد عبدالله الصديق (القاهرة : د/ت)
- ابن العماد ، شذرات الذهب في خبر من ذهب (بيروت : د/ت) .
- ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، تحقيق : مصطفى جواد (بغداد : ١٩٧٠)
- ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت : ١٩٧٧) .
- ابن مسكويه ، تجارب الامم ، تحقيق : امدرود (مصر : ١٩١٦)
- او الفدا ، المختصر في اخبار البشر (بيروت : د/ت)
- د. بدري محمد فهد ، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد : ١٩٧٦)

- التنوخي ، الفرج بعد الشدة (القاهرة : ١٩٠٤)
- نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، تحقيق : عبود الشالجي
- التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، تحقيق : احمد امين واحمد الزين (بيروت : د/ت)
- رسالة الصداقة والصديق : تحقيق : ابراهيم الكيلانسي (دمشق : ١٩٦٤)
- المقابسات ، تحقيق : حسن السندربي (القاهرة : ١٩٢٩)
- الذهبي ، تاريخ الاسلام ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري (بيروت : ١٩٨٩)
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق : جنان خليل (بغداد : ١٩٩٠)
- الصابي ، تاريخ هلال بن المحسن ، تحقيق : امدرود ومرجليوث (القاهرة : ١٩١٩)
- طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد : ١٩٦٨)
- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابي الفضل ابراهيم (بيروت : ٢/ت)
- د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بيروت : ١٩٩٩)
- د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : د/ت)
- د. فاروق صمر فوزي ، النهوض العربي في العراق (بغداد : ١٩٨٩)
- فالتر هنتس ، المكائيل والاوزان ، ترجمة : د. كامل العسلي (عمان : د/ت)
- القشيري ، الرسالة القشيرية (بيروت : د/ت)
- محمد رجب النجار ، الشطار والعيارون (الكويت : ١٩٨٩)
- المسعودي ، مروج الذهب (بيروت : ١٩٨٣)
- المقدسي : احسن التقاسيم ، تحقيق : ذي خوية (لندن : ١٩٠٦)
- د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد (اربد : ٢٠٠٣)
- الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ضمن الجزء الحادي عشر من تاريخ الرسل والملوك للطبري .



مجلد الحاشية العنبرية

مركز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الجزء الثالث - المجلد الواحد والخمسون

بغداد ۱۱۳

۱۴۲۵ هـ ۲۰۰۴ م

مكتبة

الفهرس

الصفحة	الموضوع
	١. دور المعرفة في التنمية الاقتصادية
٥	الدكتور دهل حسن جريو
	٢. نضائد الرصاص الحامضية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً
٢٧	الدكتور جلال مصد صالح
	٣. اللغات العبرية ، لغت العرب القدماء
٧٥	الدكتور عامر سليمان
	٤. اكتشاف غير مسبوق حول رحلة ابن بطوطة
٩٣	الدكتور عبد الهادي التازي
	٥. الشيخ محمد الجواد الجزائري وتيسير علوم اللغة العربية
١١٩	الدكتور نعمة رحيم العزلي
	٦. أهل الحديث والرأي العلم في العراق في العصر العباسي الأول (التوافق والخصومة)
١٤٧	الدكتورة ناهضة مطر حسن
	٧. أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) جدلية الذات والمجتمع
١٧٩	الدكتور خليل إبراهيم جاسم
	٨. إشكالية العلاقة بين العيارين والشطار والسلطة البويهية
٢١١	الدكتور موفق سالم نوري
	٩. الدلالات النفسية للصور الفنية
٢٤٩	الدكتور جبير صالح القرغولي
	١٠. مرصد الاطلاع (وصفي الدين البغدادي)
٢٨٥	الدكتور نوري عبد المجيد